من أسرار النظم القرآني في إبراز مكنونات النفس (إخوة يوسف أنموذجاً)

دكتورة/شومة محمد مساعد الفاضلي البلوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد- قسم اللغة العربية
كلية الآداب- جامعة تبوك

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل أعظم المعجزات على رسولنا محمد -ﷺ-، فخصَّه بكتاب أنزله بأفصح لسان، وادَّخر في آيه غرر البلاغة ودرر البيان، وقصَّ عليه فيه أحسن القصص عبرة لأولي الألباب، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[1]، والصلاة والسلام على خير الأنام، إمام المرسلين وخاتم النبيين، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، صلى ربنا عليه وعلى آله وصحابته أجمعين وسلم تسليما كثيراً.

وبعد

فإن النفس البشرية تأخذها زخارفُ الحياة الدنيا وأطماعُها، فترغب فيها، وتركن إليها، وتأمر صاحبها بالسوء، قال تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[2]، وقد وعد الله من شكر نعمه أن يزيده، وتوعّد من كفرها بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[3].

والله -عز وجل- لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فإن كان المرء في نعمة ولم تغيره النعمة وتطغه، بل ظل على عهده بربه، حفظ الله له ما وهبه من نعم؛ وعلى العكس من ذلك إن كان مفسداً في الأرض طاغياً، ثم تاب إلى ربه وأناب، فإن

---

[1] سورة يوسف، الآية: ١١١.

[2] سورة يوسف، الآية: ٥٣.

[3] سورة إبراهيم، الآية: ٧.

الله ينعم عليه، ويغيِّر حاله إلى الأفضل والأحسن، قال تعالى: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[1].

فالله –عز وجل– يقر الإنسان على ما وهبه من نعم إن حافظ عليها، وأدى حق الله فيها وظل مستقيماً على الطريقة، بل ويزيده منها، فإن تغيّر نُزعت منه، وحُوّلت لغيره، ففي الحديث: ((**إِنْ لِلَّه أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ**))[2].

والإنسان لا يعيش وحده بل يعيش في مجتمع يرى فيه الغني والفقير؛ لأن الله عز وجل قد قسم الأرزاق، ورفع بعض الناس على بعض، قال تعالى: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[3]، وأمام هذا التفضيل ينبغي على المرء أن يلتزم ما أمر به النبي –ﷺ– كي تستقيم حياته، إذ قال ﷺ: ((**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**))[4].

فإذا التزم المرء منهج الإسلام، وامتثل ما أمر الله –عز وجل– به، وما بينه رسول الله–ﷺ– عاش راضياً مطمئناً، ويحيا حياة طيبة، وإن أعرض ونأى، فنظر إلى ما في يد غيره، وحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، ويعيش قلقاً غير راض، ويستحوذ عليه النكد والغم؛ لأنه لم يرض بما قسم الله له، فإن ظلَّ على ذلك طيلة حياته، ولم يرجع إلى ربه، فقد هلك وأضاع نفسه، وإن أقلع عما هو فيه وغيَّر نهجه، وتاب إلى ربه نجا، وصار من خير الخطائين، قال ﷺ مبيناً فضل

---

[1] سورة الرعد، الآية: ١١.

[2] رواه الطبراني (٢٢٨/٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦١٧)، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط٥.

[3] سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

[4] المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، كتاب: الزهد والرقائق، (٢٢٧٥/٤)، حديث رقم: (٢٩٦٣)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

التوبة، وأن الناس جميعا يُخطئون، وخيرهم الذي يبادر بالتوبة: ((**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**))[1].

وفي القصص القرآني الكريم عبرة لأولي الألباب، وقد قرأت سورة يوسف –عليه السلام– ووقفت أمام الآية الكريمة ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**﴾[2]، متأملة أحوال إخوة يوسف –عليه السلام– في السورة الكريمة، فرأيت تغيُّراً في أحوالهم وهداني الله –تعالى– إلى أن أنهض بتتبع هذه الأحوال، وأدرسها دراسة بلاغية متأنية، تكشف عن أسرار النظم الكريم في إبراز تلك الأحوال، فاستخرت الله –تعالى– ونهضت بهذا البحث الذي جاء بعنوان: **(من أسرار النظم القرآني في إبراز مكنونات النفس "إخوة يوسف – عليه السلام – أنموذجاً").**

وقد تكون البحث من هذه **المقدمة، وتمهيد** تضمن إطلالة موجزة على القصص القرآني وأغراضه، ثم أربعة مباحث:

المبحث الأول: احتيال إخوة يوسف لإبعاد يوسف عن أبيه.

المبحث الثاني: التقاء يوسف إخوته بعد حين من الزمان.

المبحث الثالث: يوسف يلتقي إخوته وقد جاؤوه بأخيه.

المبحث الرابع: إقرار إخوة يوسف بخطيئتهم وطلبهم الاستغفار.

ثم **خاتمة:** تضمنت أهم نتائج البحث وتوصياته، **فثبت** بأهم مصادر البحث ومراجعه، **فملخصين** أحدهما باللغة العربية، والآخر باللغة الإنجليزية.

هذا ومن الدراسات السابقة التي تناولت سورة يوسف –عليه السلام– ما يلي:

١. (سورة يوسف دراسة تحليلية)، لأحمد نوفل، دار الفرقان، ١٤٠٩ه–١٩٨٩م، ط١.
٢. (الدلالة الإعجازية في رحاب سورة يوسف)، لعمر محمد عمر، دار المأمون للتراث، ١٤١٧ه–١٩٩٧م، ط١.
٣. (الإعجاز البلاغي في قصة يوسف)، لعلي الطاهر عبد السلام، ١٤٢٩/٣/١٨ه.

---

[1] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع ، كتاب: التوبة والإنابة، باب: خير الخطائين التوابون، حديث رقم: (٣١٦٥)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ه–١٩٩٠م.

[2] سورة يوسف، الآية: ٧.

وغيرها من الدراسات التي نهضت بدراسة قصة يوسف –عليه السلام–، فسورة يوسف قد أُشْبِعَت بحثاً، لكن تلك الدراسات التي تناولتها دراسات عامة، لم يتّجه أصحابها إلى دراسة أسرار النظم، وتجلية ما وراءه من أهداف وأغراض؛ لأن ذلك يحتاج إلى دراسات تفصيلية تخصيصية، بمعنى: البعد عن التعميم في الموضوعات، والاتجاه إلى التخصيص، بأن يدرس مثلاً: (مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام)، و(يوسف –عليه السلام– في السجن)، و(يوسف وتأويل رؤيا الملك)، و(يوسف على خزائن الأرض)، بهذا التخصيص يستطيع الدَّارس أن يتتبع النظم القرآني، فيقف على أسراره في إبراز المقاصد والأغراض، على نحو ما صنعت هذه الدراسة، التي تتبعتْ أحوال إخوة يوسف –عليه السلام– في السورة الكريمة، وأنعمت النظر في نظم الآيات الكريمة، التي ورد فيها ذكر هذه الأحوال، وكيف أبرز نظمها الكريم تغير إخوة يوسف –عليه السلام– فهي دراسة تفصيلية، تخصصت في أحوال إخوة يوسف، فاستطاعت أن تكشف عن أسرار النظم القرآني في إبراز مكنونات نفوسهم، من خلال تتبع أحوالهم في السورة الكريمة، ولذا كان عنوانها: **(من أسرار النظم القرآني في إبراز مكنونات النفس "إخوة يوسف –عليه السلام– أنموذجا")**، فأسأل المولى –جل وعلا– أن ينال هذا البحث القبول، وأن ينفع به، إنه خير مسئول، وهو نعم المولى ونعم النصير.

التمهيد

إطلالة على القصص القرآني وأغراضه

ينبغي على المسلم أن ينعم النظر في القصص القرآني، ليفقه ما جاء فيه من أخبار وحقائق، ومعانٍ وعبرٍ، وليحيط بأغراضه، فالقصص القرآني غيبٌ أوحاه الله -تعالى- إلى نبيه -ﷺ- قال تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1]، والأمر بالصبر في ختام الآية الكريمة ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ يدل على أن من أغراض القصص القرآني: تثبيت فؤاد النبي -ﷺ- وفؤاد كل من آمن معه، للصبر على أذى الكفار، فإن النصر للمتقين ﴿**إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، والهزيمة للكافرين، قال تعالى: ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[2].

ويدل ختام هذه الآية الكريمة على أن من أغراض القصص القرآني العظة والتذكُّر، أن ينظر المؤمنون فيما قص القرآن من أحوال الأمم الماضية، ويتعظوا بهلاك الكافرين، ونجاة الرسل والمؤمنين، ويعلموا أن ما أصابهم من أذى قد أصاب من قبلهم، ولكن العاقبة أبداً للمتقين ﴿**إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، وقد أمر الله -عز وجل- نبيه -ﷺ- أن يقصّ القصص للتفكُّر والتأمُّل، قال تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[3]، وأمره أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، هو ومن آمن به واتبع هداه والنور الذي أنزل معه، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[4]، ومن أهم أغراض القصص القرآني أن يتزوّد الدعاة بخير زاد، قصه الله -جل وعلا- عن رسله -عليهم السلام- وما كان من أحوال مكذبيهم وإيذائهم، وصبر الرسل، وما حاق بهؤلاء المكذبين من العذاب، وما كان من نصر الله -عز وجل- لرسله، ذاك وعد الله لرسله وللمؤمنين، قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ**

---

[1] سورة هود، الآية: ٤٩.

[2] سورة هود، الآية: ١٢٠.

[3] سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

[4] سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

الْأَشْهَادُ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[2].

فعلى الدعاة أن يتأملوا قصص الأنبياء –عَلَيْهم السَّلام– ومناهجهم في الدعوة إلى الله –تعالى– وصبرهم على ما أوذوا في سبيل الدعوة إلى الله حتى مَنَّ الله عليهم بنصره، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾[3]، عليهم أن يتأمّلوا هذا القصص في سور القرآن الكريم، فيقتدوا برسل الله، ويصبروا في سبيل الدعوة، ويأخذوا العبرة والعظة، ويثقوا بنصر الله –تعالى– أولياءه، وهلاك أعدائه.

ومن أغراض القصص القرآني أنه يغرس في وجدان الشباب الطهر والعفاف، وكبح الشهوات، يتعلمون ذلك من قصة يوسف –عليه السلام– عندما راودته امرأة العزيز؛ إذ فرَّ منها، و﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[4]، ويغرس في وجدان النساء التزام أسس الدين، كما في قصة ابنتي شعيب، إذ وقفتا تذودان، والناس يسقون، ولما سألهما موسى: ﴿**مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾[5]. إن سبب ذود ابنتي شعيب أنهما لا تخالطان الرجال، فقد خرجتا للعمل؛ لأن أباهما شيخ كبير لا يقوى على العمل، فخروجهما للعمل ضرورة، ولما خرجتا لم تخالطا الرجال، فهذا هو شأن المرأة، تقرُّ في بيتها، ولا تخرج لتعمل إلا لضرورة، وعند خروجها لا تخالط الرجال، ومن نفس القصة يُغرس في وجدان النساء الحياء، فقد سقى موسى للمرأتين، ثم تولى إلى الظل، ودعا ربه أن يُطعمه؛ لأنه غريب جائع ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾[6]. جاءته إحداهما تمشي على استحياء، وعلى استحياء قالت: إن أبي يدعوك.

---

[1] سورة غافر، الآية: ٥١.

[2] سورة يونس، الآية: ١٠٣.

[3] سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

[4] سورة يوسف، الآية: ٢٣.

[5] سورة القصص، الآية: ٢٣.

[6] سورة القصص، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

وفي القصص القرآني تسلية للمبتلين، فقد ابتلي أيوب -عليه السلام- فدعا ربه، وصبر على الابتلاء حتى كشف الله ما به من ضر ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ**﴾[1].

ومن أهم أغراض القصص القرآني أيضاً: إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أن أصل الشرائع التي بُعث بها الأنبياء واحد، وهو الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[2]. وقال عز وجل: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[3].

إلى غير ذلك من أغراض القصص القرآني الكريم، كتسلية النبي -ﷺ- والتسرية عنه، لما أصابه من المكذبين الضالين، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾[4].

وكترغيب المؤمنين في الثبات على الإيمان، والازدياد منه؛ لأن الله ينجي المؤمنين من الشدائد، ومن كل كرب، كما نَجَّى يونس من بطن الحوت، قال تعالى: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[5]. وكتحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لأن الكفر عاقبته وخيمة، عاقبته التدمير والإهلاك، قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾[6].

وكتحذير الطغاة والظالمين من التمادي في الظلم؛ لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، والله -عز وجل- يمهل ولا يهمل، قال ﷺ: ﴿**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**﴾[7]، وقال تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا**

---

[1] سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

[2] سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

[3] سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

[4] سورة فاطر، الآيتان ٢٥، ٢٦.

[5] سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

[6] سورة محمد، الآية: ١٠.

[7] رواه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث رقم: (٢٥٨٣).

ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[1].

لقد أخبر القصص القرآني في مواضع كثيرة أن الله –عز وجل– يهلك الظالمين الكافرين وينجي عباده المؤمنين، قال تعالى: **﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[2].

هذا ومن أهم أغراض القصص القرآني كذلك تنبيه بني آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم –عليه السلام– وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد، قال تعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ إِذْ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[3].

ومنها: بيان قدرة الله على الخوارق[4]، كقصة خلق آدم من تراب، وخلق حواء من ضلعه، وخلق عيسى من غير أب، وكقصة إبراهيم والطير الذي آبَ إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً، وكقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فتعجب: كيف يُحيي الله هذه القرية! فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وكقصة أهل الكهف، لبثوا في كهفهم موتى ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ثم أحياهم الله عز وجل، قال تعالى: **﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾**[5].. صدق الله العظيم.

---

[1] سورة هود، الآيات: ١٠٠ – ١٠٣.

[2] سورة يونس، الآيتان ١٠٢، ١٠٣.

[3] سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

[4] ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص١٥٤، دار الشروق، ط١٧.

[5] سورة الكهف، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

المبحث الأول

احتيال إخوة يوسف لإبعاد يوسف عن أبيه

قص الله -عز وجل- على نبيه -ﷺ- خبر يوسف -عليه السلام- وبَغْيَ إخوته عليه، تسلية له -ﷺ- وتسرية عنه ليتأسى به، وذلك لما كان من إيذاء المشركين، وبغيهم عليه ﷺ[1].

إن إخوة يوسف -عليه السلام- قد بغوا عليه، واحتالوا لهذا البغي، وقد كشف النظم الكريم عن مكنونات نفوسهم، فهل تغيرت تلك النفوس بعد ذلك؟ كثير من الناظرين في قصة يوسف -عليه السلام- يكيل لإخوته كيلاً ثقيلاً من الذم وتقبيح الصنيع، ولا يذكر شيئاً عن تغيُّر نفوسهم.

والذي يتجلى في الآيات، أنهم قد أخطأوا، ثم تابوا بعد حين، وحسنت نياتهم، فهم من خير الخطائين، كما جاء في الحديث **((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))**[2]. وستكشف لنا مباحث هذا البحث عن صحة هذا الزعم، من خلال تأمُّل أسرار النظم للآيات الكريمة.

<u>تفكير الإخوة في شأن يوسف وأخيه:</u>

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ. إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾[3].

فكر إخوة يوسف ماذا يصنعون بيوسف وأخيه، وقد صارا أحب إلى أبيهم، وكان يعقوبُ شديدَ الحبِّ ليوسفَ وبنيامين، فكان يُرى منه الميلُ إليهما ما لا يُرى لهم، ولعل زيادة حب يعقوب -عليه السلام- ليوسف وأخيه، يرجع إلى صغرهما، فهما أصغر

---

[1] ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي، ٢٥٨/٨، تحقيق: إياد محمد، ط ١٤٣٤-٢٠٠٣م، جائزة دبي الدولية للقرآن.

[2] سبق تخريجه، ص٢.

[3] سورة يوسف، الآيات: ٧-١٠.

إخوتهم، وأيضا للرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[1].

وقد بدأت الآيات بتأكيد أن في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**﴾ أكدت الجملة بـ(قد) وباللام الموطئة للقسم، ونكّرت ﴿**آيَاتٌ**﴾؛ للدلالة على تعظيمها، ولسائل أن يسأل: هل ما أُكّد من آيات في يوسف وإخوته للسائلين فحسب؟.

والإجابة: في يوسف وإخوته آيات للسائلين ولغير السائلين، فليست الآيات في الآية الكريمة قاصرة على السائلين، فهي آيات للسائلين ولغير السائلين، وإنما صرح بالسائلين وهم اليهود؛ لأنهم هم الذين سألوا رسولَ الله –ﷺ– عن قصةِ يوسفَ، فذكرت لهم القصة، ونزلت السورة الكريمة في ذكر تفاصيلها[2].

ويتعجب الإخوة من زيادة محبة يعقوب –عليه السلام – ليوسف وأخيه ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ أكدت الجملة بلام الابتداء ﴿**لَيُوسُفُ**﴾ وبالحال ﴿**وَنَحْنُ عُصْبَةٌ**﴾ أي: جماعة يعتمد عليها، وكانوا عشرة، وخُتمت الآية بهذه الجملة المؤكدة بـ(إن) واللام ﴿**إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ وهي جملة مبينة لتعجبهم في الجملة الأولى، فجاءت مفصولة عنها لكمال الاتصال، والمراد بالضلال المبين: الخطأ في الرأي، أي: لفي خطأ من رأيه ظاهر بيِّن؛ لاختيارِهما وتفضيلهما علينا، وليسَ المرادُ الضلالَ عن الدين. فهذا الحشو من المؤكدات في كلامهم، فكأنهم يبررون لأنفسهم ما سيكون من تآمر شنيع للتخلص من يوسف عليه السلام.

ثم تُعرض آراؤهم في شأن يوسف، وهي ثلاثة، أولها: القتل ﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ**﴾، ثانيها: الطرح إلى أرض بعيدة ﴿**أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾، وهذه الأفعال– بصيغة الأمر المباشر تدل على مدى الحقد والحسد الذي يشعر بحجم الجسد والغيرة والرغبة الملحة في التخلص منه، ويوحي تنكير الأرض بأنها أرض بعيدة مجهولة لا يعرفها أحد، وبالقتل أو الطرح إلى أرض بعيدة يتحقق لهم أمران، أولهما: ﴿**يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ**﴾

---

[1] سورة يوسف، الآية: ٤.

[2] ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، فيصل بن عبد العزيز المبارك، تحقيق: عبد العزيز عبدالله، ٣/٣٩٥، دار العاصمة– السعودية– الرياض، ط١، ١٤١٦–١٩٩٦.

يخلص لكم فيُقبِلُ بكلِّيته عليكم، وثانيهما: ﴿**وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**﴾ أي: يصلُحُ حالُكم عندَ أبيكم، وقيل: معنى (صالحين): تائبين، أي: تُحْدِثون بعد ذلك توبة، فيقبلُها الله -عز وجل- منكم[1].

الرأي الثالث: رفض القتل؛ لأنه كبيرة من الكبائر، ورفض الطرح إلى أرض بعيدة مجهولة، لأن في هذا ضياعَ يوسف وهلاكه، ورأي أن يُلقى في غيابات الجب، فهذا آمن له، إذ يلتقطه بعض السيارة: ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾، وهذا الرأي ليهوذا، وكان أشفقهم وأحنّهم على يوسف، وقيل: لرُوبيلُ، وكان أكبرهم سنّاً، وأحسنهم رأياً في يوسف[2]، ويوحي التعبير بـ(إن) دون (إذا) في ختام الآية الكريمة ﴿**إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ باستبعاد القائل ما يدبره الأخوة ليوسف، وعدم رضاه عنه. يقول عبد القاهر الجرجاني: "و(إن) فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ(إذا) فيما علم أنه كائن"[3].

<u>الاحتيال لأخذ يوسف:</u>

﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ. قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾[4].

واضح أن الرأي الثالث وهو إلقاء يوسف في غيابات الجب، قد وافق جميعهم عليه، والنظم القرآني الكريم قد سكت عن ذلك لأمرين، أولهما: لوضوحه، فالحذف وطي المشاهد الواضحة كثير في السورة الكريمة، ثانيهما: الإيحاء بأن هذا الذي دبّروه ما كان ينبغي أن يحدث، لقد طويت موافقتهم جميعاً على إلقاء يوسف في غيابات الجب؛ للدلالة على أن ذلك مما ينبغي ألا يكون، ونرى المشهد ينتقل بنا إلى مخاطبة أبيهم، والاحتيال لأخذ يوسف معهم ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾، جاء النداء بـ (يا) والمنادى قريب حاضر، تعظيماً للمنادَى وهو يعقوب

---

[1] ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، ٣/٣٩٥.

[2] ينظر: تفسير البغوي، ابن مسعود البغوي (المتوفى:٥١٠هـ) ٤/٢١٨، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

[3] دلائل الإعجاز، الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، ص٨٢، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣ه-١٩٩٢م.

[4] سورة يوسف، الآيات: ١١-١٤.

–عليه السلام– وقُرن النداء بهذا الاستفهام التعجبي ﴿**مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ**﴾ المؤكد بالحال، فالجملة الحالية مؤكدة بـ(إن) واللام ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾ تودداً لأبيهم، وترغيباً له في إرسال يوسف معهم، ثم طلبوا إرساله معهم صراحة ﴿**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ**﴾، وأكدوا هنا حفظه بالجملة الحالية المؤكدة أيضاً بـ(إن) واللام ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

لقد أكدوا نصحهم ليوسف في الآية الأولى، عندما تعجّبوا من عدم أمن أبيهم، كيف لا يأمنهم عليه وهم الناصحون له، وأكّدوا في هذه الآية حفظهم له، عندما طلبوا إرساله معهم، وتقديم الجار والمجرور (له) في الموضعين (له لناصحون) و(له لحافظون) "يجوز أن يكون لرعاية الفاصلة والاهتمام بشأن يوسف في ظاهر الأمر، ويجوز أن يكون للقصر الادعائي، جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح لغيره"[1]، وفي كلا التأكيدين هم كاذبون؛ لأنهم يريدون الغدر والأذى، لا النصح والحفظ.

وكانت إجابة أبيهم: ﴿**قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**﴾ اعتذر إليهم –عليه السلام– بشيئين، أحدهما: أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر على فراقه ساعة، وثانيهما: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم.

فطمأنوه بأنهم عصبة أي: جماعة يعتمد عليها: ﴿**قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾، اللام موطئة للقسم، فأكدوا لأبيهم حفظهم له من عدوة الذئب بثلاثة مؤكدات: بالقسم، وبجملة الجواب الاسمية المؤكدة بـ(إنَّ) واللام ﴿**إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾، وبالتعبير بـ(إنْ) التي تدل على ندرة وقوع الشرط ﴿**إِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾.

ومما يُلاحظ أن يعقوب –عليه السلام– قد اعتذر لهم بأمرين: أحدهما حزنه لمفارقته، والثاني خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه، وأن الأبناء قد طمأنوه على الثاني فقط؛ لأن أشغل الأمرين لقلبه –عليه السلام– خوف الذئب عليه، فهو مظنة هلاكه، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل، فأمر سهل، فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وطمأنته من أشد الأمرين عليه، وكان –عليه السلام– قد رأى في النوم أنّ الذئب شدّ على يوسف، فكان دائماً يحذره من الذئب، ومن ثَمَّ قال

[1] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٢٢٩/١٢، دار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

لهم: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، فلقّنهم العلة التي اعتلوا بها عندما ألقوه في غيابات الجب ثم رجعوا يبكون، وفي أمثالهم: (البلاء موكل بالمنطق)[1].

تنفيذ المؤامرة وإلقاء يوسف في غيابات الجب:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

وافق يعقوب –عليه السلام– على إرسال يوسف معهم، وطويت هذه الموافقة لوضوحها، يقول الطبري (ت٣١٠هـ): "وفي الكلام متروكٌ حذف ذكره، اكتفاءً بما ظهر عما ترك، وهو: فأرسله معهم"[3].

وجواب (لما) في قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾** هو: **﴿أَجْمَعُوا﴾** فأدخلت الواو في جواب (لما)، وأصل الكلام: فلما ذهبوا به أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب، ومثله قول امرئ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى بِنا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حقاف عَقَنْقَل[4]

فأدخل الواو في جواب (لما)، لأن أصل الكلام: فلما أجزنا ساحة الحي انتحى بنا[5]. وقيل: إن جواب **(لَمَّا)** في الآية محذوفٌ، والمعنى: فلما ذهبوا به فعلوا ما فعلوا من الأذى، فقد روي: أنهم لما برزوا به إلى البرّية أظهروا له العداوة، وأخذوا يهينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم، لم يغثه إلا بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه، فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه؟ ولما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك، ودلوه في البئر، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري (المتوفى:٥٣٨هـ)، ٤٤٨/٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه.

[2] سورة يوسف، الآية: ١٥.

[3] تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري (المتوفى:٣١٠هـ)، ٥٧٣/١٥، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٤) البيت من الطويل، ديوان امرئ القيس، امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار المتوفى سنة ٥٤٥م، ٣٩/١، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

[5] ينظر: تفسير الطبري، ٥٧٥/١٥.

البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة، فقام عليها وهو يبكي، فنادوه فظنّ أنها رحمة أدركته فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا، وإنما نزعوا قميصه ليلطخوه بالدم، ويحتالوا به على أبيهم إذا ما رجعوا إليه[1].

فهل هذه القسوة التي استحوذت عليهم، وامتلأت بها نفوسهم ستزول؟ هل ستتغير نفوسهم؟ هذا ما سنراه من خلال تتبع أسرار النظم الكريم في مباحث البحث التالية إن شاء الله.

والتعبير بالإجماع في قوله تعالى: ﴿**وَأَجْمَعُوا**﴾ يدل على تبشيع ما فعلوه، إذ اتفقوا جميعاً على إلقائه في غيابة الجب، ولم يشذ منهم أحد، وتكلأ عناية الله –تعالى– يوسف في هذا المكان، إذ أوحى إليه ربه ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾.

وأكثر العلماء يرون أن الوحي على حقيقته، وأن الله قد بعث إليه جبريل –عليه السلام– يؤنسه ويبشّره بالخروج، ويخبره أنه سينبئهم بما فعلوا وهم لا يشعرون، وبعضهم يرى أن الوحي إلى يوسف حينئذ يحتمل أن يكون برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام، أو برؤيا، والرؤيا الصادقة وحي، ويرى بعض أن الله –عز وجل– قد أعطاه الله النبوة في الجب، وهذا بعيد[2].

ويوحي التعبير باسم الإشارة الموضوع للقريب **(هذا)** بتحقير الأمر الذي قد أجمعوا عليه، كما يدل تقديم المسند إليه على خبره الفعلي في الجملة الحالية ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ على تأكيد نفي شعورهم، وقد حذف مفعول الفعل ﴿**يَشْعُرُونَ**﴾ وتقديره: وهم لا يشعرون أنَّكَ يوسفُ؛ للدلالة على بعد منزلته وعلوِّ قدرِه –عليه السلام– آنذاك، وعلى بعد عهدِهم به، كما أُكد الفعل المضارع ﴿**لَتُنَبِّئَنَّهُمْ**﴾ باللام، وبنون التوكيد الثقيلة، وكل هذا الذي روعي في النظم الكريم قد هوَّن على يوسف –عليه السلام– مصيبته، فعلم –عليه السلام– أنها مصيبة في الظاهر، نعمة في الباطن.

---

[1] ينظر: الكشاف، ٤٤٩/٢؛ وحاشية الطيبي على الكشاف الطيبي على الكشاف، شرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي، ٢٥٨/٨، تحقيق: إياد محمد، ط ١٤٣٤–٢٠٠٣م، جائزة دبي الدولية للقرآن.

[2] ينظر: تفسير البغوي، ٢٢٢/٤؛ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، ٤٥٣/٤، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

الكذب على أبيهم والاحتيال لترويجه:

﴿**وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ. وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾[1].

عُطف المجيء على جمل مطوية، تدل تلك الجمل المعطوف عليها المطوية على تدبير أمورهم، قبل الرجوع إلى أبيهم، والمعنى: فدبروا أمرهم، ولطخوا القميص بالدم، وجاؤوا أباهم عشاء، واختاروا وقت العشاء في قوله تعالى: ﴿**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**﴾؛ لأن المجيء في ظلمة العشاء، يكون أجرأ على الاعتذار بالكذب، وأوثر التعبير بالمضارع ﴿**يَبْكُونَ**﴾؛ للدلالة على تجدد البكاء واستمراره، وفيه دليل على أن بكاء المرء لا يدل دائماً على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعا – كما هنا – ومن الناس من يقدر على التطبع حتى يصير تطبعه يشبه الطبع، وقيل: لا يبعد أن يكون بكاؤهم حقيقياً، بأن يقال: إنهم وإن جنوا على يوسف –عليه السلام– فقد ندموا على ما فعلوا، فعلاهم البكاء؛ لندمهم، وإن لم يظهروا ندمهم لأبيهم، وتقوّلوا على الذّئب أنه أكله[2].

وفصلت هذه الآية ﴿**وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**﴾ عما بعدها للاستئناف البياني (شبه كمال الاتصال)، إذ تضمنت سؤالاً، وقع ما بعدها جواباً له، وكأنَّ سائلاً سأل: فماذا قالوا له؟ فجاء الجواب: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾.

روي أن يعقوب –عليه السلام– سمع صياحهم وبكاءهم، فخرج وقال: ما لكم يا بَنِيَّ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما أصابكم؟ وأين يوسف؟ ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾، أي: وما أنت بمصدّق لنا، لسوء ظنّك بنا، وفرطِ محبتِكَ ليوسفَ، ولأنه لا دَليلَ لنا على صِدْقِنا، ولو كنا صادقين عند الله.

---

[1] سورة يوسف، الآيات: ١٦–١٨.

[2] ينظر: تفسير القشيري لطائف الإشارات، ت:إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية، مصر، ط٣، ١٧٣/٢.

وشأن الذئاب الافتراس لا الأكل؛ لأن الفَرْس معناه في اللغة: دق العنق[1]، وهذا ما يصنعه الذئب وغيره من السباع المفترسة، ولكن النظم الكريم عبر بالأكل دون الافتراس في الموضعين: ﴿**وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**﴾، ﴿**وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾ فما السر البلاغي وراء العدول عن التعبير بالافتراس إلى التعبير بالأكل في الموضعين؟ السر البلاغي وراء ذلك في الموضع الأول: أن يعقوب –عليه السلام– كان يخاف عليه خوفاً شديداً، ويتصور أن الذئب سيأكله، أي: سيلتهمه ويبتلعه، ولن يقف الأمر عند حد الافتراس، وأما في الموضع الثاني: فإن الإخوة قد آثروا التعبير بالأكل دون الافتراس، ليصوروا أن الذئب قد أتى على جميع أجزائه وأعضائه، ولم يترك منه مفصلاً، ولا عظمًا؛ لأنهم كانوا يخشون أن يطالبهم أبوهم يعقوب –عليه السلام– بأثر باق منه، يشهد بصحة ما ذكروه[2].

ونُكر الدم ووصُف بالمصدر في قوله تعالى: ﴿**وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾ مبالغة في ظهور كذبهم، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للدلالة على المبالغة[3]، وكان الدم كذباً، لأنه كان دم سخلة، والسخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكرًا كان أو أنثى.

ومن الملاحظ أن إخوة يوسف قد أفاضوا وأطالوا قولاً وفعلاً، قولاً إذ: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾، وفعلاً إذ: ﴿**وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾ كل هذا ويعقوب –عليه السلام– صامت، ويؤذن صمته بشدة الحزن الذي أصابه، ثم نطق –عليه السلام– فكذَّب فعلهم أولاً، إذ قال: لو أكله السبع لخرق قميصه، وروي أنه جعل يقلّب القميص

---

[1] ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، مادة: فرس، ١٦١/٦، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.، ط١، ١٤١٠ه.

[2] ينظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص٤١، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.

[3] ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: علي عطية، ٣٩١/٦، دار الكتب العلمية، ط ١٤١٥ه.

ويقول: ما عهدت الذئب حليمًا، أكل ابني، وأبقى على قميصه؛ لأنهم لما لطخوا القميص بدم السخلة، نسوا أن يشقوه[1].

ثم كذَّب قولهم: ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾، أضرب بـ(بل) فردَّ كل ما أوردوه قولاً وفعلاً، ثم اتهمهم ﴿**سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾، والتسويل هو التزيين، فالنفس تزين لصاحبها السوء وتأمره به، وقد نكر ﴿**أَمْرًا**﴾ للدلالة على التعميم، أي: أمراً من أمور الشر العديدة، التي تزينها الأنفس، وتدل الفاء في قوله تعالى ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ على أن هذا الاتهام قد مرَّ سريعاً، لم يقف أمامه يعقوب –عليه السلام– كما أطالوا هم في عرض كذبهم، بل ذكره ذكر الكرام، منتقلاً منه إلى الصبر الجميل الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لمخلوق.

وفي التعبير حذف يوحي بشدة الحزن والأسف على فقدان يوسف، ويحتمل النظم الكريم أن يكون المحذوف: المسند إليه، وتقديره: فشأني صبر جميل، أو المسند وتقديره: فصبر جميل أولى بي[2]، ففي الحذف تكثير للمعنى؛ إذ يقدر المحذوف مسنداً إليه، فيصور حال يعقوب –عليه السلام– وأن شأنه الصبر الجميل، ويقدر مسنداً فيصور المطلوب منه، وهو أن الأولى له أن يصبر صبراً جميلاً، وتنكير الصفة والموصوف ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ يدل على تعظيم كل منهما، وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾؛ إذ قصرت الاستعانة على الله تعالى، فهو وحده المستعان به على ما يصفون، وطريق القصر تعريف الطرفين، ويوحي هذا القصر بعظم الجرم الذي ارتكبوه، فهو جرم لا يطلب العون عليه إلا من الله العلي القدير.

السيارة واسترقاق يوسف:

﴿**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾[3].

---

[1] ينظر: توفيق الرحمن في دروس القرآن، فيصل بن عبد العزيز المبارك، ٤٧٢/٢، تحقيق: عبد العزيز عبدالله، دار العاصمة، السعودية، الرياض، ط١، ١٤١٦-١٩٩٦.

[2] ينظر: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، المجلد الثالث عشر، ٦٠/٦، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

[3] سورة يوسف، الآيتان: ١٩، ٢٠.

مكث يوسف –عليه السلام– في الجب ثلاثة أيام، ثم جاء أولئك السيارة، وهم رفقة كانت تسير من مدين إلى مصر، يقال: لما أراد الله تعالى خلاص يوسف –عليه السلام– من الجبّ أزعج خواطر السّيارة في قصد السفر، وأعدمهم الماء حتى احتاجوا إلى الاستقاء ليصل يوسف –عليه السلام– إلى الخلاص؛ لأن تلك الرفقة قد أخطؤوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب، الذي كان في قفرة بعيدة من العمران، لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماء الجب ملحاً، فعذب حين ألقى فيه يوسف[1].

أرسلت السيارة واردهم لطلب الماء ﴿**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ**﴾، والسيارة صيغة مبالغة، يقال: سائر وسيّار، كقاتل وقتّال، آكل وأكّال، مبالغة في السير، إذ اعتادوا السير بين البلدان وصار لهم صنعة، وقد نُكِّرت ﴿**سَيَّارَةٌ**﴾؛ إذ لم يتعلق غرض بتعريفها، والوارد "هو من يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيئ الأرشية والدلاء"[2]، ولذلك أرسلوه ﴿**فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ**﴾.

تقدم الوارد فـ ﴿**فَأَدْلَى دَلْوَهُ**﴾ أي: أرسلها في البئر، يقال: –أَدْلَيْتُ الدَّلْوَ إِذَا أَرْسَلْتَهَا فِي الْبِئْرِ، وَدَلَوْتُهَا إِذَا أَخْرَجْتَهَا[3]– فلما أدلاها، أي: أرسلها في البئر، تعلق يوسف –عليه السلام– بالحبل، فلما دلاها، أي: أخرجها، إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فيوسف –عليه السلام– قد أعطي شطر الحسن، قال ﷺ: ((**أُعْطِيَ يُوسُفُ شَطْرَ الْحُسْنِ**))[4].

ولما أبصر الوارد يوسفَ غلاما جميلاً، متعلقا بحبال الدلو، نادى البشرى فـ ﴿**قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ**﴾، وللعلماء في نداء البشرى قولان، القول الأول: أنه اسم لصاحب له يُدعى (بشرى)، ناداه؛ ليعينه على إخراج الدلو وقد تعلق به يوسف –عليه السلام–، وهذا ليس بقول، وثانيهما: أنه نادى (البشرى) بشارة لنفسه أو لقومه، كأنه قال: تعالَيْ، فهذا أوانك فاحضري، كما يقال: يَا أسفى، ويا حسرتا، ويا ويلتي، إذا وقع ما هو سبب لذلك من التحسر والتندم، فالعرب نادت المعاني والحيوان والطير والجماد

---

[1] تنظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٢٧٨/٨؛ ولطائف الإشارات، ١٤٧/٢.

[2] تفسير البغوي، ٤١٥/٢.

[3] ينظر: لسان العرب، مادة: دلو، ٢٦٥/٢.

[4] قطعة من حديث الإسراء والمعراج، أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، برقم: (١٦٢): ١٤٥/١–١٤٧، وفيه: "**فإذا أنا بيوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا هو قد أعطي شطر الحسن**".

والأشجار والقبور؛ لدواع بلاغية، كما في قول الحسين بن مطير الأزدي في رثاء معن، فقد نادى القبر متعجباً كيف وارى جود معن:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كان منه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعَا[١]

وكما في قول ليلى بنت طريف ترثي أخاها:

أيا شجر الخابور مَالك مورقاً كَأَنَّك لم تجزع على ابْن طريف[٢]

نادت شجر الخابور، فبثّته أحزانَها وآلامها، ووبَّخته على عدم جزعه، ومشاركته لها الأحزان والآلام.

وكما في قول عروة بن حزام، إذ نادى حمامة بطن وَجٍّ التي هيجت أشواقه وأحزانه:

فنوحي يا حَمامَةَ بَطْنِ وَجٍّ فقد هيَّجت مشتاقًا حزينا[٣]

وفي القرآن الكريم نودي الويل والحسرة تعجباً وندماً: ﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾[٤]، ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا**﴾[٥]، ﴿**أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**﴾[٦].

وللعلماء في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً**﴾ رأيان، الأول: أنه يرجع للوارد وأصحابه، أخفوا أمره، وأنهم قد وجدوه في الجب، وقالوا للسيارة: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر.

---

[١] البيت قاله أبو تمام، ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس (ت٢٣١ هـ)، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، ١/٢، دار القلم، بيروت.

[٢] البيت قالته الفارعة بنت طريف، الحماسة الشجرية، ابن الشجري، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي المتوفى ٥٤٣ه، ٣٢٨/١، تحقيق: عبد المنعم الملوحي، أسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠م.

[٣] البيت من الوافر، لعروة بن حزام بن مهاجر الضني، ديوان عروة بن الحزام، جمع وتحقيق وشرح: أنطوان محسن الطوال، ص٣٣، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٥م.

[٤] سورة هود، الآية: ٧٢.

[٥] سورة الفرقان، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

[٦] سورة الزمر الآية: ٥٦، وينظر: كتاب علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، للدكتور بسيوني فيود، ص٣٤٨، مؤسسة المختار، ط٣، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

الرأي الثاني: أنه يرجع لإخوة يوسف –عليه السلام–؛ وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام، فأتاه في ذلك اليوم فلم يجده في الجب، فأخبر إخوته، فأتوا الرفقة وقالوا لهم: هذا غلام لنا قد أبق، فاشتروه منا، وسكت يوسف؛ مخافة أن يقتلوه، وممن يرى هذا الرأي ابن عباس رضي الله عنهما[1].

وختمت الآية بإسناد علم ما يعمله إخوة يوسف إلى الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ أي: والله عليم بما يعمله إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع، وأوثر التعبير باسم الموصول (ما)، للدلالة على التهويل والتفظيع، وتشنيع صنيعهم، كما حذف مفعول ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾ العائد على إخوة يوسف؛ للدلالة على نفس المعنى.

والفعل (شرى) في قوله تعالى: ﴿**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾ مضارعه: (يشري) ويستعمل بمعنى البيع وبمعنى الشراء، والمراد: أن إخوة يوسف –عليه السلام– باعوه للرفقة، أو أن الرفقة اشتروه منهم بـ﴿**بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**﴾، والبخس في اللغة بمعنى الناقص، وقيل بمعنى الحرام؛ لأن ثَمَنَ الْحُرِّ حَرَامٌ، وَسُمِّيَ الْحَرَامُ بَخْسًا؛ لأنه مَبْخُوسُ الْبَرَكَةِ[2].

و﴿**دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**﴾ بَدَلٌ من ﴿**بِثَمَنٍ**﴾، ويوحي التعبير بـ﴿**دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**﴾ بقلة الثمن، فهو دراهم وليس دنانير، ومَعْدُودَة أي: تعدّ عدّاً ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية، وهي الأربعون، ويعدّون ما دونها، وقيل للقليلة معدودة؛ لأنّ الكثيرة يمتنع عدّها لكثرتها[3].

والزاهد في البيع هو من يرغب عما في يده، فيبيعه بما طف من الثمن[4]، وكان سبب الزهد في يوسف –عليه السلام– في قوله تعالى: ﴿**وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾ أن إخوة يوسف يريدون الخلاص منه وإبعاده، هذا إذا جعل الضمير في ﴿**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً**﴾ عائداً عليهم، فإن جعل عائداً على الوارد ورفقته، كان سبب الزهد فيه أنهم قد

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف، ٤٥٢/٢؛ وتفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، ١٥٨/٣، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ..

[2] ينظر: فتح القدير، ١٧/٣–١٨، والكشاف، ٣٥٤/٢.

[3] ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٢٨١/٨.

[4] ينظر: المصدر نفسه.

التقطوه من الجب، والملتقط للشيء مُتهاونٌ فيه، لا يبالى بم باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحقه، فينتزعه من يده، ولذا فهو يبيعه لأول مساوم بأبخس الأثمان[١].

وعلى كل فقد بيع يوسف -عليه السلام- واسترق، بيع مرتين، إن كان إخوته قد باعوه للرفقة، عندما أتوهم وقالوا لهم: هذا غلام لنا قد أبق، فاشتروه منا، فاشتروه منهم، ثم باعوه لعزيز مصر، وإن كان الضمير في ﴿**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً**﴾ راجعاً للوارد ورفقته، يكون عليه السلام قد بيع مرة واحدة لعزيز مصر، الذي اشتراه من الرفقة وقال لامرأته ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾[٢].

المبحث الثاني

التقاء يوسف إخوته بعد حين من الزمان

نشأ يوسف -عليه السلام- في بيت عزيز مصر، ثم يتعرض لمراودة امرأة العزيز، وتثبت براءته، ويشيع في المدينة على ألسنة النسوة، أن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، فتجمعهن، ويُعجبن بحسنه، فيدعو ربه أن يصرف عنه كيدهن، وكان السجن أحب إليه من كيدهن، فيسجن ويدخل معه السجن فتيان، فيؤول لهما رؤياهما، ويدعو في السجن إلى ربه، ويخرج من السجن بعد تأويله رؤيا الملك، وتثبت براءته لدى الملك، فيقول له: ﴿**إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾[٣]، فيطلب منه أن يجعله على خزائن الأرض، ويستجيب الملك فيصير يوسف -عليه السلام- على خزائن مصر -وزيراً للمالية- وهو على خزائن مصر يأتيه إخوته في السبع الشداد ليبتاعوا منه، قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ. قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ. وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[٤].

---

[١] ينظر: الكشاف، ٤٥٣/٢.

[٢] سورة يوسف، الآية: ٢١.

[٣] سورة يوسف، الآية: ٥٤.

[٤] سورة يوسف، الآيات: ٥٨-٦٢.

يوحي مجيء إخوة يوسف في قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ**﴾ بأن السبع الشدائد لم تقف عند أهل مصر، فقد أصابَ أرضَ كنعانَ وبلادَ الشام ما أصابَ أرضَ مصرَ من القحطِ والشدة، ونزلَ بيعقوبَ ما نزلَ بالناسِ، وكان منزلُه بأرضِ فلسطينَ، فأرسلَ بنيهِ العشرةَ إلى مصرَ للميرةِ، وأمسكَ بنيامينَ شقيقَ يوسفَ، فلم يرسله معهم[1].

وتوحي الفاء في قوله تعالى: ﴿**فَدَخَلُوا عَلَيْهِ**﴾ بشدة ما نزل بإخوة يوسف؛ إذ دخلوا بمجرد مجيئهم، (جاؤوا فدخلوا) لم يتريثوا ولم ينتظروا؛ وذلك لشدة حاجتهم إلى الميرة، كما توحي الفاء في قوله تعالى ﴿**فَعَرَفَهُمْ**﴾ بسرعة تعرُّف يوسف عليهم، فقد عرفهم بمجرد دخولهم عليه، وبين ﴿**فَعَرَفَهُمْ**﴾، ﴿**وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**﴾ تقابل يدعو للتأمُّل، إنهم إخوة فكيف يعرفهم –عليه السلام– وهم ينكرونه؟ لعل ذلك لطول العهد، ولمفارقته إياهم وهو في سنّ الحداثة، ولذهابه عن أوهامهم؛ لقلة تفكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولعلو منزلته التي بلغها من الملك والسلطان، فلم يخطر ببالهم أن هذا هو الذي فارقوه طريحاً في البئر، أو باعوه عبداً آبقاً، أما يوسف –عليه السلام– فقد عرفهم؛ لأنه فارقهم وهم رجال، ورأى زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك، ولأنّ همته كانت معقودةً بهم وبمعرفتهم[2].

أكرم يوسف وفادة إخوته، وجهّزهم بجهازهم، والجهاز: ما يهيأ به المسافر، فقد أصلحهم بعُدة السفر من الزاد، وما يحتاج إليه المسافر، وأوقر ركائبهم، فأعطى كل واحد منهم حمل بعير، وذلك قوله: ﴿**وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ**﴾، وعندئذ طلب منهم أن يأتوه ببنيامين ﴿**قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ**﴾، وعلل طلبه بأنه قد أحسن ضيافتهم، وأتمَّ لهم الكيل ﴿**أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**﴾، وبمجيء أخيهم يزدادون حمل بعير.

ويلاحظ في النظم الكريم أن يوسف –عليه السلام– قد جد في ترغيبهم، حتى يأتوه ببنيامين، فقد قرر رؤيتهم إيفاءه الكيل بهذا الاستفهام التقريري ﴿**أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ**﴾ مؤكداً مفعول الرؤية (إيفاءه الكيل) بـ(أن) وتقديم المسند إليه ﴿**أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ**﴾، ونكَّر الأخ ﴿**بِأَخٍ**﴾ وكأنه لم يعرفه إلا من خلال حديثهم عنه، ووضع الفعل المضارع ﴿**ترون**﴾ موضع الفعل الماضي (**رأيتم**)؛ استحضارا لصورة الفعل (الرؤية)

---

[1] ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، ٤٣٧/٣.

[2] تنظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٣٧٥/٨ .

بما تشتمل عليه من محاسن ولطائف في المعاملة، وقدَّم المسند إليه في جملة ﴿**وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**﴾ تأكيداً لكونه خير المنزلين، وهذا كله من تمام الترغيب، وهو "من قبيل الكنايات التي ينتقل فيها من اللازم، وهو الثناء هنا إلى الملزوم"[(١)]، وهو ترغيب النفس وتهيئتها للقبول.

ولم يتعجّب الإخوة من طلب يوسف –عليه السلام– ولم يتساءلوا: كيف عرف أن لنا أخاً؛ لأنه لابد من مقدمة كلام قد جرى بينهم وبينه، قبل أن يطلب هذا الطلب، فقد روي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم؟ وما شأنكم فإني أنكركم؟ قالوا: نحن قومٌ من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة، بنو أبٍ واحد، وهو شيخ صدّيق، نبي من الأنبياء، اسمه يعقوب، قال: كم عددكم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون؟ وأنّ الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة، وائتوني بأخيكم من أبيكم، فتركوا عندَه شمعونَ، وكان يوسفُ –عليه السلام– يُحسِنُ إليه[(٢)].

وبعد أن طلب يوسف من إخوته أن يأتوه ببنيامين، يأتي هذا التهديد ﴿**فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ**﴾، وهو تهديد شديد؛ إذ منعهم الكيل وهم في قحط، ولابد لهم من هذا الكيل، بل ونهاهم أن يقربوا بلاده، لقد كان يوسف –عليه السلام– حريصاً على إتيانهم ببنيامين، ولذا كان هذا الوعيد الشديد، وحجز أحدهم عنده وهو شمعون، بل ورد إليهم بضاعتهم؛ ليضمن رجوعهم ﴿**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾، فقد قيل في سبب ذلك الجعل: إن يوسف –عليه السلام– إنما أمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم؛ لعلمه أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة، ولا يستحلون إمساكها، فيرجعون لأجل ردها[(٣)].

---

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، ١٣٣/٢، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٠هـ.

(٢) تنظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٣٧٧/٨؛ وفتح الرحمن في تفسير القرآن، ٤٣٧/٣.

(٣) ينظر: تفسير الكشاف، ٤٨٥/٢.

وأمام هذا الحرص الشديد من يوسف –عليه السلام– على إتيانهم ببنيامين، كانت إجابة الإخوة ﴿**قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**﴾، مؤكدين الجملة المعطوفة بـ(إن)، واللام ﴿**وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**﴾، والمعطوف عليها بالسين ﴿**سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ**﴾؛ فهي أقرب من (سوف) في فعل المراودة، ومعنى: (سنراود): "سنطلُبه منه باجتهاد ورفق"[1]، ويوحي التعبير بهذا الفعل (نراود) بتغير نفوس إخوة يوسف –عليه السلام– فهم الآن سيراودون أباهم عن بنيامين، أي: سيجدون في طلبه ولكن برفق ولين، وقبلاً قالوا: اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً، وفعلوا به ما فعلوا ثم كذبوا على أبيهم.

مراودة أبيهم يعقوب –عليه السلام– عن بنيامين:

﴿**فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ. قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾[2].

ويفي إخوة يوسف –عليه السلام– بوعدهم إياه، فقد بادروا بمراودة أبيهم عن بنيامين بمجرد وصولهم ﴿**فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا**﴾ وقد جدوا في تلك المراودة كما وعدوا يوسف، ويرجع هذا الجد إلى: ١– التلطف في النداء ﴿**يَا أَبَانَا**﴾. ٢– إيثار التعبير بالمنع ﴿**مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ**﴾ وهم إنما أنذروا بالمنع، وفي هذا إيحاء بأن من أنذر بالمنع فقد منع، وهذا المنع له أثره البالغ؛ لأنهم في قحط وفي حاجة إلى استمرار الكيل. ٣– حذف سبب المنع، والتقدير: مُنِع منا الكيل إن لم يُرسل معنا بنيامين، ويوحي هذا الحذف بخوفهم على أبيهم، إذ سيتذكر بذكره يوسف –عليه السلام– فيتألم. ٤– تأكيدهم حفظ بنيامين بـ(إن) واللام وتقديم الجار والمجرور المتعلق باسم الفعل في قوله: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، وهذا التأكيد وإن تقدّم في طلبهم إرسال يوسف، إلا أنه قد اقترن به هنا، ما يدل على تغيرهم وانصلاحهم، وهو إضافة الأخ إليهم ﴿**فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا**﴾، تلك الإضافة لم نرها عند طلبهم إرسال يوسف، مما يدل على أنهم قد تغيروا،

---

[1] ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، ٤٣٨/٣.

[2] سورة يوسف، الآيات: ٦٣–٦٦.

وصاروا يريدون الخير، وأقلعوا عن الشر. ٥- تعليقهم الكيل على إرسال أخيهم ﴿**فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ**﴾ وهم في حاجة إلى الكيل.

وأمام هذا الجد في الطلب يُذكِّرهم أبوهم بما كان منهم في شأن يوسف ﴿**قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ**﴾، فالاستفهام هنا بمعنى النفي، ومجيء الاستفهام بمعنى النفي فيه تنبيه وتذكير، يريد -عليه السلام- أنهم قالوا في يوسف من قبل ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ كما يقولون الآن في أخيه، ثم غدروا ولم يحفظوه، فلا آمن عليه من مثل ما فعلتم بيوسف، ثم قال ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً**﴾ فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم، لكنهم استشعروا أنه دفع المضطر، لحاجتهم إلى الكيل[١].

ولذا لما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم رُدّت إليهم، عندئذ بادروا بنداء أبيهم، فقد رأوا برهاناً يؤكد ما يقولون ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾، فمعنى ﴿**مَا نَبْغِي**﴾: إما على النفي، أي: ما نبغي في القول، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة، لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته. أو ما نبتغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان، وإما على الاستفهام، بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا الإحسان؟[٢] وبعد هذا الاستفهام أو النفي، تأتي تلك الجمل الموصولة ﴿**وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ**﴾ المرغبة في إرسال أخيهم.

وأمام ذلك البرهان، وهو وجود بضاعتهم قد رُدّت إليهم وهذا الترغيب، تأتي الموافقة التامة من أبيهم على إرسال بنيامين معهم، ولكن بعد أن يستوثق ﴿**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ**﴾، مؤكداً الإتيان بنون التوكيد الثقيلة وباللام ﴿**لَتَأْتُنَّنِي بِهِ**﴾، ثم استثنى ﴿**إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ**﴾.

---

[١] ينظر: تفسير الكشاف، ٢/٤٨٥.

[٢] ينظر: تفسير الكشاف، ٢/٤٨٦.

ومعنى الإحاطة بهم: أن يحيط بكم العدو[1]، فتهلكوا جميعًا، ومعنى هلاكهم جميعاً، أنه لن يعود أحد منهم، فسيهلكون جميعاً دون بنيامين بمقتضى الميثاق، ومن ثَمَّ سيهلك هو الآخر، ويوحي تنكير ﴿مَوْثِقًا﴾ بتعظيمه، فأعطوا أباهم ذلك الموثق العظيم ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

إسداء نصيحة من يعقوب –عليه السلام– وقبول أبنائه إياها:

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقبل أن يتحركوا بأخيهم بنيامين يُسدي يعقوب –عليه السلام– إليهم نصيحة، يُلاحظ فيها أمران:

أولهما: هذا النداء ﴿يَا بَنِيَّ﴾، وهو نداء يدل على المحبة والترفُّق، ولم نرَ هذا النداء عند مراودتهم إياه عن يوسف عليه السلام.

ثانيهما: سبب إسداء تلك النصيحة ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾؛ لأنه –عليه السلام– خاف عليهم من العين؛ إذ إنهم أبناء رجل واحد، وكانوا موصوفين بالجمال والكمال[3].

ويدل هذان الأمران: النداء ﴿يَا بَنِيَّ﴾، وما وراء إسداء النصيحة، على أن ثَمَّ شيئاً قد حدث، وهو تغير الأبناء، وتخليهم عن المكر والخداع والكذب، الذي اعتراهم واستحوذ عليهم، عندما راودوا أباهم عن يوسف وفعلوا به ما فعلوا، ولقد استشعر يعقوب –عليه السلام– ذلك، فكان منه هذا النداء وتلك النصيحة. ويوحي قوله تعالى ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بأن ما أراده الله –تعالى– مصيبهم لا محالة،

---

[1] يقولون: أحيط بفلان إذا هلك أو قارب الهلاك، ويقال: أحيط بفلان: أتى عليه. ينظر: لسان العرب، مادة: أحيط، ٢٨٠/٧، وأساس البلاغة، أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، ص٩٩، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

[2] سورة يوسف، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

[3] ينظر: التفسير الكبير، فخر الدين الرازي خطيب (المتوفى: ٦٠٦هـ)، ٤٨١/١٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ه.

فإن أراد بهم سوءاً، لم ينفعهم ولم يدفع عنهم ما أشار به عليهم من التفرق شيئاً، وما أراده الله -عز وجل- مصيبهم لا محالة، ولذا توالت هذه الجمل الدالة على القصر ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ ثلاث جمل دالة على القصر، الأولى دلت على قصر الحكم على الله تعالى، وهذا القصر طريقه النفي والاستثناء، والثانية دلت على قصر توكل يعقوب على الله تعالى، والثالثة دلت على قصر توكل كل المتوكلين على الله عز وجل، وكلا القصرين طريقهما التقديم.

ومما يُلاحظ في القصرين: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ الجمع بين الحرفين: الواو والفاء في عطف الجملة على الجملة، إذ تقدّم الجار والمجرور ﴿**عَلَيْهِ**﴾؛ للدلالة على الاختصاص، فكأن الواو للعطف والفاء في ﴿**فَلْيَتَوَكَّلِ**﴾ لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يُقتدى بهم[1]..

وقد امتثل الأبناء، واستجابوا لنصيحة أبيهم، فذلك قوله تعالى ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ إِذْ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ**﴾، وما قاله يعقوب إنما هو إشفاق عليهم، أشفَقَ عليهِم -عليه السلام- إِشْفَاقَ الْآبَاءِ عَلَى أَبْنَائِهِم، وَجَرَى الأمرُ على ذلك، وما كان يغني عنهم قوله من الله من شيء، إلا أنهم قضوا وطرًا ليعقوب باستجابتهم، ودخولهم من أبواب متفرقة خوفًا من العين عليهم، فاطمأنت نفسه أن يكونوا أوتوا من قبل ذلك، أو نالهم من أجله مكروه[2].

إن الأبناء قد استجابوا لنصيحة أبيهم -عليه السلام-، وهذا تغير واضح في سلوكهم، امتثلوا فدخلوا من أبواب متفرقة، وما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ رأيه -عليه السلام- مما قضاه الله عليهم من شيء، فاتهموا بالسرقة، وأُخذ بنيامين لوجود الصواع في رحله، وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام.

وهذا ما قاله -عليه السلام- قبلاً ﴿**وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**﴾، ولذا ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ**﴾ أي: بالوحي، ونصب الحجج، وإقامة البراهين، ولذلك قال عندما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد، وأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة: ﴿**وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ فلم يغتر -عليه السلام- بتدبيره ﴿**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**

---

[1] ينظر: تفسير البيضاوي، ١٧٠/٣.

[2] ينظر: تفسير الطبري، ١٦٧/١٦؛ وتفسير البغوي، ٢٥٨/٤.

لاَ يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر، وأنه لا يغني عنه الحذر[١]، وفي الحديث عن عائشة -رضي الله عنها- مرفوعاً **((لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، وإنّ البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء، فَيَعْتَلِجَان إلى يوم القيامة))**[٢].

المبحث الثالث

يوسف يلتقي إخوته وقد جاؤوه بأخيه

قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ. قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ. قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ. قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ. فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ. قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ. قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ**﴾[٣].

روي أن إخوة يوسف -عليه السلام- لما أتوه بأخيه بنيامين قالوا له: هذا أخونا الذي أمرتنَا أن نأتيكَ به، قد جئنا به، فقال لهم: أحسنتُم وأصبتُم، وستجدون ذلكَ عندي، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ**﴾ هنا جمل مطوية سُكت عنها، تقديرها: فلما دخلوا على يوسف وقالوا له: هذا أخونا، الذي أمرتنَا أن نأتيكَ به، قد جئنا به، فأنزلَهم وأكرمَهم، وأجلسَ كلَّ اثنينِ منهم على مائدة، فبقيَ بنيامينُ وحدَه، فبكى وقال: لو كانَ أخي يوسفُ حيًّا لأجلسَني معه، فأجلسَه يوسفُ معه، وجعلَ يؤاكلهُ، وأنزلَ كلَّ اثنينِ في

---

[١] ينظر: تفسير الكشاف، ٤٨٨/٢؛ وتفسير البيضاوي، ١٧٠/٣.

[٢] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب: الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، باب: الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، (٤٩٢/١)، حديث رقم: (١٨٥٦).

[٣] سورة يوسف الآيات: ٦٩-٧٩.

مكانٍ، فلم يبقَ لبنيامينَ ثانٍ، فقال: هذا لا ثانيَ له، فيكون معي، فباتَ بنيامين عندَ يوسفَ، فذلك قولُه عز وجل ﴿**آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ**﴾ أي: ضمَّه إليه[1].

سكت عن تلك الجمل أولاً لوضوحها، وثانياً لأن سياق النظم الكريم معني بما صنعه يوسف –عليه السلام– للإبقاء على أخيه عنده، فلما خلا به قال له: ما اسمُك؟ قال: بنيامينُ، قال: أتحبُّ أن أكونَ أخاكَ بدلَ أخيكَ الهالك؟ فقال: ومَنْ يجدُ مثلَكَ؟ ولكن لم يلدك يعقوبُ، ولا راحيلُ، فبكى يوسفُ وقامَ إليه وعانقَهُ، وقَالَ له: إِنِّي أَنَا أَخُوكَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2].

المراد بالأخ في قوله تعالى ﴿**إِنِّي أَنَا أَخُوكَ**﴾: يوسف –عليه السلام– وقيل إنما قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقود[3]، وقد أُكّد الخبر بـ(إن) وضمير الفصل (**أنا**)؛ لغرابته بالنسبة لبنيامين، فأكده دفعاً لتلك الغرابة، إن كان المراد بالأخ يوسف، وإن كان المراد: أنا أخوك بدل أخيك المفقود، يكون المراد بالتوكيد: الإيناس، أن يأنس بنيامين ويطمئن.

ولم يطنب النظم الكريم في إكرام يوسف –عليه السلام– إخوته، بل طوى ذلك؛ لأن المقام لبيان كيف استبقى يوسف أخاه، فانتقل سريعاً لبيانه، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ**﴾، تلك هي الوسيلة التي استبقى بها يوسف أخاه، جعل السقاية وهي مكيالٌ يُكالُ به، ويشربُ فيه الملكُ، جعلها في رحل أخيه ﴿**ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾، يوحي الحرف (**ثُمّ**) بامتداد الوقت بين جعل السقاية في الرحل وبين التأذين، ويروى أن العير كانت قد انفصلت عن مصرَ نحوَ الشام، فأرسلَ يوسفُ –عليه السلام– من استوقفهم فوقفوا.

وعبَّر عن النداء بالتأذين؛ للدلالة على شيوع الأمر وانتشاره، وقد أكَّد الأمر الذي استوقفوا من أجله ﴿**إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾ لتقريره، ودفعا لإنكارهم، كما وجّه النداء إلى العير ﴿**أَيَّتُهَا الْعِيرُ**﴾ ذمّاً لهم وتحقيراً؛ لأن من شأن السارق، أن يُذم ويُحتقر، ففي لفظ (**الْعِير**) مجاز مرسل علاقته المجاورة.

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف، ٢٦٢/٣.

[2] ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، ٤٤٣/٣.

[3] ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٣٩١/٨.

ويبدأ بتلك الجمل المستأنفة استئنافاً بيانياً حوارٌ بين إخوة يوسف والمؤذن ومن معه ﴿**قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ**﴾، ويوحي إقبالهم ﴿**وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ**﴾ بالثقة والنزاهة، والبراءة من تلك التهمة، وأجاب المؤذن ومن معه ﴿**قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ**﴾، ورصدوا مكافأة لمن جاء به ﴿**وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ**﴾ أي: ضامن، قدم الضمير (**أَنَا**) لتوكيد الضمان، وأفرد حتى لا يضيع الضمان بين المؤذن ومن معه، ورد الإخوة ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**﴾، ويوحي هذا الرد بثقتهم من براءتهم؛ إذ أكدوا بالقسم مستشهدين بجوابه ﴿**لَقَدْ عَلِمْتُمْ**﴾ لما ظهر من دينهم وأمانتهم، أكدوا بذلك: نفي الإفساد، والسرقة المنسوبة إليهم ﴿**مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**﴾، وعطفُ نفي السرقة على نفي الإفساد من قبيل عطف الخاص على العام.

عندئذ سأل المنادي وأصحابه ﴿**قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ**﴾؟ أجاب الإخوة: ﴿**قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾، وكان جزاءُ السارقِ في شرعِ يعقوبَ –عليه السلام– أن يسلَّم إلى المسروقِ منه، فيسترقَّهُ سنةً، ولعل هذا السؤال كان بإيعاز من يوسف –عليه السلام–؛ لأنه كان يعرف جزاء السارق في شريعة أبيه يعقوب عليه السلام.

واقتضت إجابة الإخوة أن تفتش أوعيتهم، فانصرف بهم المؤذن ومن معه إلى يوسف –عليه السلام– فأمر بأن يُبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين؛ لنفي التهمة، حتى بلغ وعاء بنيامين فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا تتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوها من وعائه[1]، فهذا قوله تعالى: ﴿**فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ**﴾، أُسند الفعلان: (بدأ، واستخرج) إلى يوسف –عليه السلام– وليس هو الفاعل، بل هو الآمر بتفتيش الأوعية، فالإسناد على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية؛ لأن يوسف هو السبب الآمر بالتفتيش.

ولما استُخرِج الصواع من رحل بنيامين، نكس إخوة يوسف –عليه السلام– رؤوسهم حياءً، وأقبلوا على بنيامين فأغلظوا له القول، يريدون أن يعرفوا منه، لم صنع هذا؟ وسألوه: متى أخذت هذا الصواع؟ فلم يصلوا إلى شيء، وكان ردّه على ما وجهوه

[1] ينظر: تفسير الكشاف، ٢/٤٩١.

إليه أن قال لهم: ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي، من وضع البضاعة في رحالكم[1].

ثم وصفوا يوسف بالسارق ﴿**قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾.

لقد كان لهذا الحادث أثر في نفوس إخوة يوسف، فبعد أن صلحت أحوالهم ونياتهم، واستجابوا لنصح أبيهم، نُكسوا على رؤوسهم، فأخذوا يصفون يوسف بالسارق ويقيسون عليه ما ظهر أمامهم من وجود الصواع في رحل بنيامين، وقد اختُلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة، فقيل: إنه أخذ في صباه صنماً كان لجدّه لأمّه، أخذه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق، وقيل: دخل كنيسة، فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب، كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: كانت في المنزل عناقٌ أو دجاجة، فأعطاها لسائل، وقيل: كانت لإبراهيم -عليه السلام- منطقة يتوارثها أكبر ولده، فورثها إسحاق -عليه السلام- ثم وقعت إلى ابنته، وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمّه، وكانت لا تصبر على فراقه، فلما شبّ وأراد يعقوب أن ينتزعه منها، عمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومةً على يوسف، فقالت: إنه لي سلمٌ أفعل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت[2].

وقد أسر يوسف ما وصفوه به في نفسه، ولم يبده لهم، وقال لهم: ﴿**أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾، فأخذوا يتوددون إليه ويستعطفونه ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾، توددوا إليه واستعطفوه فنادوه تعظيماً: ﴿**يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ**﴾، وأكدوا شيخوخة أبيهم بـ(إن)، والتقديم والوصف بالكبر ﴿**إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا**﴾، وأكدوا إحسانه ﴿**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾، والغاية من كل ذلك أن يقبل أخذ أحدهم مكان بنيامين، ولكن يوسف -عليه السلام- رفض عرضهم، و﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ**﴾ رفض عرضهم مستعيذاً بالله أن يستبدل أحدهم بمن وجد الصواع في رحله ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ**﴾ مؤكداً بـ(إن) واللام، وحذف مضاف الظرف

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف، ٤٩٢/٢.

[2] تنظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٤٠١/٨.

(إذ) وتقديره: إذ فعلنا ذلك، فهذا الحذف يوحي بأن ما يطلبونه لن يكون له وجود، أكد -عليه السلام- بتلك المؤكدات نسبة الظلم لمن يفعل ما يطلبون ﴿**إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ**﴾، فهو إن فعل ما يطلبون فقد تأكد ظلمه، لقد قطع عليهم كل طريق، ووضع سدوداً أمام أية محاولة قد يُحاولونها.

كيف وصل نبأ السرقة إلى يعقوب عليه السلام؟

﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ. قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

استيأس الإخوة من يوسف -عليه السلام- فقد قطع الطريق بتلك التوكيدات التي أوضحناها، أمام أية محاولة لهم، لأخذ أخيهم، وعندئذ خلَوْا للمناجاة ﴿**خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾، فذكَّرهم كبيرهم بموثق أبيهم، وبمكنونات أنفسهم؛ إذ تفريطهم من قبل في يوسف، وقرر أن يبقى بأرض مصر لا يبرحها ﴿**حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾، وقال لهم: ﴿**ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾.

بقي كبيرهم بأرض مصر، بعد أن أرشدهم إلى ما يفعلون، وانطلق الإخوة إلى أبيهم، فوقف على نبأ السرقة، كيف وقف على النبأ؟ طوى النظم الكريم ذلك؛ لوضوحه، وعلى الرغم مما تبين في النظم الكريم، إذ تجلى فيه ما يلي: ١- تأكيد نبأ السرقة ﴿**إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾.

---

[1] سورة يوسف، الآيات: ٨٠-٨٧.

٢- وأنه قد اشتهر وذاع بين الناس، يوحي بذلك حذف المضاف إلى القرية وإلى العير. ٣- وتأكيد صدقهم ﴿**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾. ٤- وبأنهم ما شهدوا إلا بما علموه من شريعته -عليه السلام- ولم يكونوا حافظين للغيب ﴿**وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**﴾ رغم ذلك كله فقد أعرض يعقوب -عليه السلام- عنهم، وقال ما قاله من قبل، عندما أخبروه بهلاك يوسف ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾، وأضاف ﴿**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**﴾ أي: بيوسف وبنيامين وأخيهم الذي رفض الرجوع وبقي بأرض مصر، وهذه الجملة تدل على الرجاء وتوحي بقرب انفراج الكرب، فمن قبل عند الإخبار بهلاك يوسف -كذباً- قال: ﴿**وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾[1]، وفي هذا القول إشعار بامتداد الكريم، الذي ينبغي الاستعانة بالله للصبر على تحمله، وهنا ﴿**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**﴾ يدل الفعل (عسى) على الترجي، فهو -عليه السلام- يرجو أن يأتيه الله بهم جميعاً، وفي ذلك إشعار بقرب الفرج وزوال الكرب.

وكان -عليه السلام- دائم الحزن على يوسف، فتولى عنهم، ونادى الأسف، وهو الحزن الشديد ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾، والمرء عندما يشتد به الحزن أو الندم، ينادي تلك المعاني، كما مضى القول.

وبين (أسفى) و(يوسف) في قوله ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾ تجانس، يوحي بتلازمهما في وجدان يعقوب -عليه السلام-، فهو لا يذكر يوسف إلا والأسف معه، لقد تصاحبا في وجدانه، وكان ذلك سبباً في فقدان بصره ﴿**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ يكظم حزنه وألمه ولا يجزع، و﴿**كَظِيمٌ**﴾ صيغة مبالغة تدل على كثرة الكظم، وتوحي بشدة الحزن.

وقد أشفق عليه بنوه من كثرة تذكره يوسف، فـ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾ حرضاً أي: فاسداً لا عقل لك، أو تكون من الهالكين، إنه إشفاق به غلظة في القول، فلم يعبأ -عليه السلام- به، و﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾، قصر بـ(إنما) شكواه الحزن والألم على الله ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾، وكأنه يقول لهم: لا شأن لكم ببثي

[1] سورة يوسف، الآية: ١٨.

وحزني، فإنما أشكو إلى الله وحده، وإيثار التعبير بـ(إنما) المستعملة في الأمور المعلومة، التي لا ينكرها المخاطب؛ للدلالة على أن ذلك أمر بيِّن واضح لا جدال فيه.

تغير يعقوب –عليه السلام– وذهب العطف والحنان، الذي رأيناه بعد عودتهم من الرحلة الأولى؛ إذ أرسل معهم بنيامين وهو ينصحهم ﴿**يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**﴾؛ لأنه استشعر هناك أن نفوسهم قد تغيرت، استشعر ذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾؛ إذ أضافوا بنيامين إليهم ﴿**وَنَحْفَظُ أَخَانَا**﴾، وتوالت تلك الجمل المرغبة في إرساله معهم.

أما الآن فقد استشعر –عليه السلام– الفظاظة والغلظة منهم ﴿**إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾، صار الآن ابنه، وهناك كان أخاهم ﴿**وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا**﴾، وحتى عندما أشفقوا عليه، كان إشفاقهم إشفاقاً فيه غلظة ﴿**تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾، يوحي بذلك لفظ الحرض ﴿**حَرَضًا**﴾ أي: فاسداً لا عقل لك، ولفظ الهلاك ﴿**أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾ إنه إشفاق به غلظة في القول، وهذا سبب تغيره عليه السلام.

وعلى الرغم مما استشعر –عليه السلام– من غلظة وفظاظة، فقد طلب منهم أن يذهبوا فيبحثوا عن يوسف وأخيه ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾، وتوحي كلمة ﴿**فَتَحَسَّسُوا**﴾ بالصبر على البحث، فأصل (التحسُّس): التفعل من الحسِّ، ولذا نصحهم ألا ييأسوا من روح الله، فالمؤمن لا ييأس من روح الله، ولا من رحمته تعالى، وفي الوقت نفسه لا يأمن عذابه وعقابه، بل يكون دائماً بين الخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾[1].

[1] سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

المبحث الرابع

إقرار إخوة يوسف بخطيئتهم وطلبهم الاستغفار

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ. قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ. قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ. قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ. قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

امتثل الأبناء أمر أبيهم يعقوب –عليه السلام–؛ إذ أمرهم بالتحسس عن يوسف وأخيه، وانطلقوا إلى أرض مصر، وقد سكت النظم الكريم عن هذه الجمل؛ لوضوحها، وأبرز الإخوة وقد وصلوا إلى العزيز (يوسف): **﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾** ويُلاحظ في نظم الآية الكريمة: إبراز الحال التي صار إليها إخوة يوسف، فقد أوثر التعبير بمس الضر **﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾**، والمراد بـ(الضُّرُّ) هنا: الهزال المسبب عن القحط والشدّة والجوع، ففي التعبير مجاز مرسل علاقته: المسببة، ووصفت البضاعة بأنها مزجاة **﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾**، والمراد بـ(الْمُزْجَاةٍ): المدفوعة، التي يرفضها كل تاجر، ويدفعها رغبة عنها، واحتقاراً لها، يقال: أزجيت فلاناً، إذا دفعته وطردته، والريح تُزجي السحاب، أي: تسوقه وتدفعه[2]، وإمعانا في إبراز سوء حالهم طلبوا منه أمرين: إيفاء الكيل والتصدُّق عليهم **﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾** وهما أمران لا يطلبهما إلا الفقير المعدم.

---

[1] سورة يوسف، الآيات: ٨٨–٩٨.

[2] لسان العرب، ٣٥٥/١٤.

وللعلماء في طلب التصدق أقوال، قيل المراد: وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، وقيل المراد: زدنا على حقنا، فسموا ما هو فضلٌ وزيادةٌ لا تلزم المطلوب منه (صدقة)، وعُلِّلَ هذان القولان بأن الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: المراد بطلب التصدق: الصدقة؛ لأنها كانت تحل لغير نبينا ﷺ[1].

وقد سُبق وصف حالهم بهذا النداء ﴿**يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا**﴾ الذي ينبئ بتقديرهم إياه، وإعلاء الشأن، وخُتم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾، وأُكد هذا الختام بـ(إن) وتقديم لفظ الجلالة، المسند إليه، ويوحي هذا التوكيد بمرادهم، وهو أن الله – تعالى– سيجزيه خير الجزاء، إذا ما راعى سوء حالهم، التي أبرزها النظم الكريم.

وقد رق يوسف –عليه السلام– لهم، لما سمع ذلك منهم، فبكى ووجّه إليهم هذا التساؤل: ﴿**قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**﴾، وهذا الاستفهام يكشف عن وجه القبح، الذي يجب أن يراعيه التائب، فينأى عنه بالتوبة منه، فلقد استشعر يوسف –عليه السلام– ندم إخوته وتوبتهم، ولذا كان هذا الاستفهام.

وتوحي جملة ﴿**إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**﴾ بترفقه وحلمه –عليه السلام–؛ إذ التمس لهم عذراً لما فعلوه، وهو جهلهم بقبح ما فعلوا، فهم لم يعلموا قبحه، ولذلك أقدموا عليه، فألقوه في الجب، ثم كذبوا على أبيهم، والمعنى: هل علمتم قبح ما فعلتم، بعد أن كنتم جاهلين به؟ فتبتم إلى الله –تعالى– منه؛ لأن علم القبح يدعو إلى استقباحه، واستقباحه يدعو المستقبِح إلى أن يتوب[2].

واستشعر الإخوة من هذا التساؤل أن المتسائل يوسف –عليه السلام–، فكان منهم هذا التعجب والاستغراب ﴿**قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ**﴾، فهو استفهام شابه معنى التعجب، وقد أُكّدت الجملة بـ(إن) واللام، وضمير الفصل (**أَنْتَ**)؛ لأنهم أرادوا الاستثبات مما استشعروه، وقد أجابهم –عليه السلام– بإثبات أنه يوسف ﴿**قَالَ أَنَا يُوسُفُ**﴾، ثم أضاف ﴿**وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**﴾ مطنباً بذكر أخيه، وهم لم يسألوا عنه؛ لأنه أراد أن يثبت وقوع منَّ الله عليهما معا، ثم جاءت جملة ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ مبينة لمنِّ الله –تعالى– فهي مفصولة عنها للاستئناف البياني، وقد وضع الاسم الظاهر ﴿**الْمُحْسِنِينَ**﴾ موضع الضمير؛ إذ الأصل إنه من يتق ويصبر فإن

---

[1] تنظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٤٢٠/٨.

[2] ينظر: تفسير الكشاف، ٥٠٠/٢.

الله لا يُضيع أجره، فعُدل إلى الاسم الظاهر (المحسنين)؛ لاشتمال الإحسان على التقوى والصبر.

وهنا يقر الإخوة بخطيئتهم معلنين اصطفاء الله يوسف عليهم ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ**﴾، وجاء ما أقروا به مؤكداً بالقسم ولامه وبقد ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ**﴾، أقروا بإيثار الله يوسف -عليه السلام- واصطفائه عليهم، وبخطيئتهم؛ إذ لم يدركوا ذلك الاصطفاء، فصنعوا بيوسف ما صنعوا.

ويأتي عفو يوسف عنهم ﴿**قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ أي: لا تأنيب عليكم، ولا عتب، وأوثر التعبير بالتثريب عن العتب والتأنيب؛ لأن التثريب أصله من الثَّرْب وهو الشحم الرقيق يغشى الكَرِشَ والأمعاء[1]، ومعنى (التثريب): إزالة الثرب؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعَجَف، الذي ليس بعده إلا العظام، فالتعبير بالتثريب عن العتب والتأنيب، يوحي بأنه ليس هنالك أدنى تأنيب أو عتاب يوجه إليهم، فيؤثر فيهم، ثم دعا -عليه السلام- لهم ﴿**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾، فجملة ﴿**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ جملة دعائية، خبرية لفظاً إنشائية معنى، فصلت عما قبلها لكمال الانقطاع، فلم يكتف -عليه السلام- بالعفو عنهم، بل دعا الله أن يغفر لهم.

وقد علم -عليه السلام- منهم، أو من بنيامين قبلاً، أن يعقوب -عليه السلام- قد عَمِيَ بسبب حزنه الشديد عليه، فقال لهم: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾، وكان هذا القميص قميص إبراهيمَ -عليه السلام- الذي ألبسَهُ إياه جبريلُ حين أُلقي في النار، وكان معلَّقاً في عنق يوسفَ حينَ أُلقي في الجبِّ فجاءه جبريلُ -عليهما السلام- وأبلغه أن يرسل ذلكَ القميصَ إلى أبيه؛ فإن فيه ريحَ الجنةِ، لا يقعُ على مبتلًى ولا سقيمٍ إلا عُوفِيَ[2].

وجه الأمر إليهم جميعاً ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي**﴾؛ ليتخيّروا أحدهم كي يذهب بالقميص، فقال يهوذا: أنا أَحْزَنْتُه بالقميصِ الملطَّخِ بالدَّمِ، فسأُفرِحُهُ بهذا القميصِ، فحملَه من مصرَ إلى كنعانَ، وبينهما ثمانون فرسخاً، ولما خرج من عمرانِ مصرَ قال يعقوبُ لحاضريه من حَفَدَتِه: ﴿**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾؛ لأن الصَّبا

---

[1] ينظر: لسان العرب؛ وتاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، مادة: (ثرب)، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

[2] ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، ٤٥٩/٣.

حملت ريحَ يوسفَ من ثمانينَ فرسخًا، فأوجدَهُ اللهُ ريحَ القميصِ من مسيرةِ ثماني ليالٍ[1].

ولما وصل البشير وهو يهوذا بقميص يوسف، ألقاه على وجهِ أبيه يعقوبَ، كما أمر يوسف –عليه السلام– فَارْتَدَّ بَصِيرًا، وهنا يُذكِّر يعقوب –عليه السلام– أبناءه وأحفاده قائلاً: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾، فهذا استفهام قد شابه معنى التقرير، تحقيقاً للقول.

لقد ندم إخوة يوسف –عليه السلام– عندما أعلمهم من كانوا يعتقدون أنه عزيز مصر، وكانوا ينادونه (أيها العزيز) أعلمهم أنه يوسف، عندئذ ندموا، وأقروا بخطيئتهم، وبأن الله قد آثر يوسف عليهم، ولكنهم كانوا في عمى وفي جهالة، فلم يدركوا هذا الإيثار، وفعلوا بيوسف ما فعلوا؛ إذ ألقوه في غيابة الجب، ثم كذبوا على أبيهم، إذ رجعوا إليه وهم يبكون، وادعوا أن الذئب قد أكله.

ويدرك يوسف ندمهم، وإقرارهم بخطيئتهم، فيعفو عنهم، ويدعو الله –تعالى– أن يغفر لهم ﴿**قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾، وبعد أن جاء البشير بالقميص وألقاه على وجه أبيه فارتد بصيرا، طلب الأبناء من أبيهم يعقوب –عليه السلام– وقد ارتد بصيرا، أن يستغفر الله لهم ذنوبهم وخطيئاتهم ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾، ولكن يعقوب –عليه السلام– يُسوِّف ويؤجل الاستغفار لهم ﴿**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾..

وقد ذكر العلماء لهذا التسويف أسباباً، فقيل: إنه قد أخّر الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة؛ ليتعمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم، فقد روى أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: إنه قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرغ من الصلاة رفع يديه ودعا: اللهمّ اغفر لي جزعي على يوسف، وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحي إليه: إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين[2].

لقد تأكد يعقوب –عليه السلام– من صدق توبة أبنائه، ولذا جد في الاستغفار والدعاء لهم، وروى أنهم قالوا ليوسف ولأبيهم –عليهما السلام– وقد اعتراهم الحزن،

---

[1] ينظر: المصدر السابق، نفس الجزء، والصفحة.

[2] ينظر: تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، ٣/٢٨٠.

علتهم الكآبة: ما يُغنى عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا، فإن لم يُوحَ إليك بعفو ربنا عنا، فلا قرّت لنا عين أبداً، فاستقبل يعقوب –عليه السلام– القبلة قائماً يستغفر لهم يدعو، وقام يوسف –عليه السلام– خلفه يؤمّن، وقام إخوة يوسف جميعاً خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة، حتى بلغ بهم الجهد مبلغه، وظنوا أنها الهلكة، عندئذ نزل جبريل فقال ليعقوب –عليهما السلام–: إن الله قد أجاب استغفارك ودعوتك في ولدك، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوّة[1].

لقد تابوا توبة نصوحاً، وتغيّرت نفوسهم، فغيّر الله ما كان بصدورهم من حقد على يوسف وأخيه، وبدّلهم بهذا الحقد الذي كان كامناً في نفوسهم، بدّلهم به محبة وود ورحمة، وصدق الله العظيم ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**﴾[2].

ومما يدل على صدق نياتهم أن يعقوب –عليه السلام– قد عفا عنهم، كما عفا عنهم يوسف –عليه السلام– من قبل، بل ورضي يعقوب –عليه السلام– عنهم، وسألهم وهو يحتضر عن عبادتهم من بعده، فأجابوه إجابةً قرّت بها عينه، وذلك قوله تعالى: ﴿**أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[3]..

نسألك اللهم إيمانا صادقاً، وعملاً خالصاً لوجهك متقبلاً، اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، واجعل يا رب هذا العمل مقبولاً، وانفع به، واجزنا عنه خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف، ٢/٥٠٤.

[2] سورة الرعد، الآية: ١١.

[3] سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

الخاتمة وأهم نتائج البحث وتوصياته

نهض هذا البحث بتتبع أحوال إخوة يوسف –عليه السلام– في السورة الكريمة، وأنعم النظر في الآيات الكريمة التي تناولت أحوالهم، وكانت غاية البحث: تجلية أسرار النظم القرآني، في إبراز مكنونات النفس، من خلال تتبع أحوال إخوة يوسف –عليه السلام– في السورة الكريمة، وقد كان من نتائج هذا البحث:

- اكتنزت الآيات البينات من أساليب النظم ودقائقه ما كان كفيلاً بإبراز مكنونات النفس البشرية، متمثلة بإخوة يوسف –عليه السلام–، فكان لكلِ تركيبٍ حجّته القوية وميزته المقنعة المفصحة عن مزيَّة الاختيار القرآني ودقّة بلاغته.
- أمسك التوكيد زمامَ النظم باقتدار مشاهد الحوار، فكان وسيلة مرشدة إلى مطامح النفوس ورغباتها، فعلى سبيل المثال ظهر حشد من المؤكدات في المشهد الأول من التحاور الكيدي لإخوة يوسف –عليه السلام–، مما أوحى باستشعارهم ضعف طرحهم وشناعته وحجاته إلى التوكيد؛ تبريراً لما يريدون من غدر وأذى.
- برزت ظاهرة الحذف في هيكلية مشاهد كثيرة من القصة ما بين طي مشاهد وطي ألفاظ؛ بغية الإيجاز، وتكثيف الدلالة، والتركيز على المهم من الأحداث والألفاظ؛ لكونها محل العناية والاهتمام.
- منحت التقديم والتأخير ظلالاً دلالية لمشاهدة عدة، وكذا شأن الأمر والاستفهام والتنكير وغيرها من حلل النظم.
- أفهم النظم في الحوارات الأخيرة تغير نفوس إخوة يوسف –عليهم السلام– وصلاح نياتهم وأحوالهم.

توصيات البحث:

قصة يوسف –عليه السلام– وغيرها من القصص القرآني قد قُتل بحثاً، لكن تلك الدراسات التي تناولت القصص الكريم، دراسات عامة، لم يتجه أصحابها إلى دراسة أسرار النظم، وتجلية ما وراءه من أهداف وأغراض؛ لأن ذلك يحتاج إلى دراسات تفصيلية تخصيصية، بمعنى: البعد عن التعميم في الموضوعات، والاتجاه إلى التخصيص، بأن يدرس مثلاً:

- مراودة امرأة العزيز ليوسف –عليه السلام– دراسة بلاغية في أسرار النظم.
- يوسف –عليه السلام– في السجن.

- يوسف وتأويل رؤيا الملك.
- يوسف على خزائن الأرض.

بهذا التخصيص، يستطيع الدارس أن يتتبع النظم القرآني الكريم، فيقف على أسراره في إبراز المقاصد والأغراض، على نحو ما صنعت هذه الدراسة، فهي دراسة تفصيلية، تخصّصت في أحوال إخوة يوسف -عليه السلام-، فاستطاعت أن تكشف عن أسرار النظم القرآني في إبراز مكنونات النفس، من خلال تتبع أحوال إخوة يوسف -عليه السلام- في السورة الكريمة.

أهم المصادر والمراجع

- أساس البلاغة، أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧.
- تفسر الطبري، محمد بن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ت: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- تفسير البغوي، ابن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، ١٣٣/٢، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٠ه.
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر الطبعة: الثالثة.
- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي خطيب (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ه.
- تفسير الكشاف، الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه.
- توفيق الرحمن في دروس القرآن، فيصل بن عبد العزيز المبارك، تحقيق: عبد العزيز عبدالله، دار العاصمة- السعودية- الرياض، ط١، ١٤١٦-١٩٩٦.
- حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي، تحقيق: إياد محمد، ط ١٤٣٤-٢٠٠٣م، جائزة دبي الدولية للقرآن.
- الحماسة الشجرية، ابن الشجري، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي المتوفى (٥٤٣ه)، تحقيق: عبد المنعم الملوحي، أسماء الحمصي، ٣٢٨/١، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠م. ٣٢٨/١.
- دلائل الإعجاز، الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣ه-١٩٩٢م.
- ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس (ت ٢٣١ هـ)، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، ١/٢، دار القلم- بيروت.
- ديوان امرئ القيس، امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار المتوفى سنة ٥٤٥م، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- ديوان عروة بن الحزام، جمع وتحقيق وشرح: أنطوان محسن الطوال، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٥م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الالوسي، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية، ط ١٤١٥ه.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
- صحيح الترغيب والترهيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ه)، مكتبة المعارف، الرياض، ط٥.
- علم المعاني (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني)، الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود طبعة مؤسسة المختار، ط٣، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت، ١٣٧٩.
- فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين بن محمد الحنبلي (المتوفى: ٩٢٧ هـ)، دار النوادر، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، المجلد الثالث عشر، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٦ه-١٩٩٦م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر- بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ه-١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ٢٤١ه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- المعجم الأوسط لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني ٣٦٠ المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

ملخص البحث باللغة العربية

تتبعت هذه الدراسة أحوال إخوة يوسف –عليه السلام– في السورة الكريمة، وأنعمت النظر في النظم القرآني الكريم، للآيات التي ورد بها ذكر هذه الأحوال، وكيف أبرز النظم الكريم لتلك الآيات مكنونات نفوسهم.

فهي دراسة تفصيلية، تخصصت في تتبع أحوال إخوة يوسف –عليه السلام– واستطاعت أن تجلي أسرار النظم القرآني في إبراز مكنونات النفس، من خلال تتبع أحوالهم في السورة الكريمة، ولذا كان عنوانها: **(من أسرار النظم القرآني في إبراز مكنونات النفس/إخوة يوسف – عليه السلام – أنموذجاً)**.

وقد تكون البحث من **مقدمة** تناولت أسباب اختيار البحث، ومنهج الدراسة.

وتمهيد تضمن إطلالة موجزة على القصص القرآني وأغراضه..

ثم أربعة مباحث:

المبحث الأول: احتيال إخوة يوسف لإبعاد يوسف عن أبيه.

المبحث الثاني: التقاء يوسف إخوته بعد حين من الزمان.

المبحث الثالث: يوسف يلتقي إخوته وقد جاءوه بأخيه.

المبحث الرابع: إقرار إخوة يوسف بخطيئتهم وطلبهم الاستغفار.

ثم **خاتمة:** تضمنت أهم نتائج البحث وتوصياته.

فثبت بأهم مصادر البحث ومراجعه.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية

This study traces the situation of the brothers of Yusuf - peace be upon him - in the sura, and improved the consideration of the Koranic systems for these verses that mentioned these conditions, and how to highlight the systems of the Holy Quran verses of their souls.

This is a detailed study, specialized in tracing the situation of the brothers of Yusuf - peace be upon him - and was able to reveal the secrets of the Koranic systems in highlighting the meanings of the soul, by tracking their situation in the holy Koran, and therefore was entitled: "Secrets of the Quranic systems in highlighting the meanings of the soul/of brothers of Yusuf -Peace be upon him – as a model".

The research contained; an **introduction** to the reasons for selecting the research, a **methodology** of the study, and a **preface** to a brief overview of the Quranic stories and purposes.

Then four topics:

- **The first topic**: the fraud of Yusuf's brothers to keep Yusuf away from his father
- **The second topic**: the meeting of Yusuf brothers after a while
- **The third topic**: Yusuf meets his brothers and they came with his brother
- **The fourth topic**: the recognition of Yusuf's brothers in their sin and their request for forgiveness.

Finally, there is a **conclusion** that includes the main findings and recommendations of the research, and the most important sources of research and review.